امرأة وشيطان

للأستاذ علي محمود طه

[من إحدى قصائد ديوان
الشوق العائد الذي يصدر قريباً]

ودنا الليل ورنّت صدحةٌ   نبّهته حين لا يبغى انتباها
وإذا مقصورةٌ من حوله   خالها تنبضُ بالروح دماها
وقفت غانيةٌ في بابها
قد تعرّت غيرَ فضلٍ من حُلاها
ثم نادت : يا « أحبابيَ انهضوا
واغنموا الليلة حتى منتهاها »
وتلاشى الصوتُ لا رجعَ صدًى
لا ولا ثمّ مُجيبٌ لنداها
فعرتها رِعدةٌ ، فالتفتتْ ، فرأته ، فتلقّاها وِجاها
أبصرتْ وجهاً كوجه المسخِ لم
يتقنّع ، شاهَ هذا الوجهُ شاها
ورأتْ كفّيه ينْدى منهما   أرَجُ الزهرِ فأجّتْ نظرتاها
عرفتْ ما اجترحته يدُهُ   أو لا يعرفُ من داسَ حماها ؟
يالهذا المسخ ! دوّتْ ومشتْ   صيحةٌ يُنذر بالويل صداها
فانثنى الشيطانُ عنها صارخاً   أتُراها تتحدى ؟ مَن تُراها ؟
فبدتْ في شفتيها آيةٌ
من مبينِ السّحر ، أوما فحاها
فدنتْ ترمقه فاختلجتْ   عينه ، حين أشارت بعصاها
بُدّلتْ تلك العصا جمجمةً   ريعَ لمّا شرعتْها فاتّقاها
هيَ من مَلْكةِ جنٍّ من نُصب   يخترمْنه بالمنايا محجراها
فتنحى غاضباً مبتئساً   وتحسّتْ والأسى يُلجِمُ فاها
وسجَى بينهما الصمتُ الذي   يتغشى الأرض إن خان رداها
والتقتْ عيناهما فاستروحا   راحةً من قبلها ما عرفاها
عرفتْ من هو فاستخذتْ له   ورأى من هيَ فاستحيا قُواها
قال : أختاه اغفري لي بطرةً   اشتهتْ كلّ جمالٍ واشتهاها
واغفري لي شِرّةً عارمةً   في دمي ، لو أتأبى ما أباها
يالهذا الدّمِ ! ما عنصرُهُ ؟   كلّما في النار من وقد لظاها !
فأجابتْ : زهراتي ردّها   إنْ تقلْ حقاً ولا تبغِ أذاها
قال : لا أذكرُ إلا حلُماً   لحظةً ضلّ بها عقلي وتاها
أأنا من تتخطّى قدمي   مسبحَ الشمس فيربدُّ ضحاها
أأنا من يطفئُ النجمَ فمي   وأردُّ الارضَ غرقى في دُجاها
وتمسُّ القممَ الشمَّ يدي   فيرى منحدراً لي مُرتقاها
وأجيءُ الارضَ من محورها   فإذا بي يتدانى قُطباها
أأراني عاجزاً عن دَرْكِ ما   تتمنّى امرأةٌ ؟! عزّتْ مناها !
آهِ ما أضعفَ سلطاني وما   كنتُ إلاّ بغروري أتباهى !!
قالتِ : الآن سلاماً زائري
ورضى نفسيَ إن رُمتَ رضاها
أيها الشيطانُ ما أعظمَ ما
قلتَهُ ، ما قلتَ لغواً أو سفاها
زهراتي تلك ، ما كانت سوى
شهواتِ جمْحيَ الطاغي عماها
قهرتني واستذلتني بها   غيرةٌ ينهشُ قلبي عقرباها
وأنانيةُ أنثى لم تُطِقْ   فاتناً تمسكه أنثى سواها
قد صنعتَ الحقّ قد عاقبتني   فارحمِ المرأةَ في ذُلِّ هواها
فدنا منها فألفتْ وجههُ
غيرَ ما كانَ ، لقد ألفتْ أخاها !
قرّبتْ بينهما روحُ الأسى   فاجتبتْهُ بعد حقدٍ واجتباها
واستهلّت دمعةٌ من عينها   دمعةٌ رقّتْ وشفّتْ قطرتاها
ضُمّنتْ كلّ عذابٍ وضنًى   كلّما في النفس من ثأر أساها
ورآها فتندّتْ عينُهُ   رحمةً ، فاحتال يُخفي من بكاها
وبكى الشيطانُ ! يا لامرأةٍ
أبكتِ الشيطانَ لمّا أنْ رآها !!

علي محمود طه